مقالة بعنوان

الفرق بين خلافات الأولين وخلافات الآخرين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد ...

ينجر الكثير بوعي وبغير وعي حتى ممن أسلم اليوم ويدخل في متاهات الفرق الإسلامية الخالية والتي سبق البناء العقدي عندها لأصل الدين المسائل التي خاضوا فيها.

هذه المسائل فتحها ويفتحها اليوم أحبار السوء ليُضلوا عن سبيل الله وليردوا أتباعهم في ظلمات الحيرة والشكوك، وليؤصلوا لمذهبهم الخبيث وهو أنه مع الخلافات القائمة والنزاعات فلا يتسرع المُحاج للتكفير، كما كان مذهب أهل السنة والجماعة مع مخالفيهم، وإنه حتى من أطلق لفظ التكفير منهم فهو بالعموم وبلوازم مقولات المبتدعة والتي يفرون منها ولا يلتزموها عادةً.

هذه الفرق الإسلامية المبتدعة من المعتزلة والأشعرية والمرجئة والخوارج وغيرها لم يكونوا يتكلمون في مسألة الكفر بالطاغوت فإنها مفروغ منها
ولم يكن أحدهم يعبد الطاغوت (سواء كان قبراً أو دستوراً أو عَلَماً) بل ولم يكن أحدهم يجوز عبادة غير الله، بل ولم يكن أحدهم ليحكم بالإسلام لعابد غير الله، كما يفعل أصحاب العمائم واللحى اليوم ممن تبحر في العلوم الشرعية وخرج بهذه النتيجة المؤسفة.

تلك أمة قد خلت.. كانوا أهل لغة عارفين بمصطلحات الدين الأساسية التي خلّط فيها المخلطون اليوم.

و إنما خاضوا في مسائل وحصلت مناظرات فيما بين هذه الفرق الضالة بعضها البعض وفيما بينها وبين أهل السنة والجماعة، والمناظرات التي دارت فيما بينهم دارت بين جهابذة علماؤهم

فعند الإطلاع على بعض المناظرات التي جرت بين المعتزلة والأشعرية في الكثير من المسائل، تجد في كلا الفريقين الجهابذة العلماء الحفاظ للتفاسير وأهل اللغة والبيان والفصاحة والعلم بأيام العرب والشعر الجاهلي.

فعلماؤهم أهل لغة يعرفون مصطلحات الدين الأساسية جيداً، يعرفون معنى (العبادة) ومعنى (الإله) فلم تصل بهم الحال والضلال إلى أن يصفوا من وقع في عبادة غير الله وألّه غيره بأنه (مسلم) وهي مسلّمة في الحقيقة يقرها كل عاقل إلا مُخلّطون اليوم ممن ينتسبون للعلم والفقه !!

لم تكن تلك الفرق تتأول وتجوّز عبادة غير الله أو تجادل عن شخص يعبد غير الله أو يقبل شرع غير الله أو يتحاكم إلى الطاغوت وتسميه (مسلماً) لم يكونوا يجادلون في الكفر بالطاغوت

وهل الواجب الكفر به أم أنها نافلة ويجوز لمن يعبد الطاغوت سواء كان دستوراً غير الشرع الإلهي ويُصوّت عليه أو يعبد حجراً أو شجراً أن يُطلق عليه أنه (مسلم) ؟

ليست هذه مسائلهم، بل هي مسائل من يُسمون أنفسهم اليوم زوراً العلماء فيخلطون ويخرجون بنتائج فيها مضحكة لولا أنها محزنة.

خاضت الفرق الأولى في مسائل ما دون أصل الدين، وتأولوا و أنكر عليهم أهل السنة.

يقرأ البعض اليوم ما ذكره أهل السنة فقط عن تلك الفرق المبتدعة وتشنيعاتهم عليهم فينطبع في نفسه تصور قاصر ونظرة من طرف واحد وكأن دافع تلك الفرق الهوى المجرد

بينما لتكون النظرة منصفة عند القراءة للمخالف سواء في رده على أهل السنة أم غيرهم من الفرق نجد أن عنده تأويلات لما ذهب إليه في مسائله التي خالفهم فيها، بل والتغليظ بل والتكفير لأهل السنة وغيرهم بلوازم ألزمها إياهم.

من تلك الفرق من خاض في مسائل أسماء الله سبحانه وصفاته، فانكر البعض لبعض صفاته سبحانه وأولها إلى معانٍ مستحسنة في نظرهم فراراً من التشبيه بزعمهم

فقالوا في معنى اليد في قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) : قدرة الله

والساق في قوله سبحانه: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) : يوم شدة

أنكروا رؤية الله تعالى يوم القيامة واستدلوا على استحالة رؤية الله سبحانه بقوله لموسى: (لَن تَرَانِي).

وأولوا المجئ والنزول إلى معانٍ غير ظاهرها، والإستواء بمعنى الإستيلاء فراراً من التشبيه !!
ومن قال منهم بخلق القرآن فلتأويلات تأولوها.

فقالوا: الله تعالى يقول: (جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) وكل مجعول فهو مخلوق، فدل على أن القرآن مخلوق!!

ومع تأويلاتهم هذه فهم يعبدون إلهاً واحداً، لم يقل أحدهم بجواز عبادة غيره سواء في الحكم أو الشعائر أو الولاية، و إنما كان التغليظ من أهل السنة عليهم وذلك لردع بدعتهم والتخويف بلوازمها.

وذكر أن مقالاتهم كفرية للوازمها التي تؤول للكفر، ولم يكفروا بالتعيين إلا من إلتزم اللوازم الكفرية ووقع في الشرك

فقالوا: من قال القرآن مخلوق فهو يعبد صنماً !!

وقالوا: من قال: القرآن مخلوق فقد أبطل الصوم والحج والجهاد وفرائض الله !!

وقالوا: إن القول بخلق القرآن يستلزم تعطيل سائر صفات الله وقدح في رسالة الرسل

وفي كثير من أصلَي الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسوله الله !!

وهو لازم القول بخلق القرآن، ومعلوم أن لأحد يلتزم هذا اللازم وخاصة من العوام المقلدين القائلين به، الذين لا يعرفون لوازم قولهم والذين لبّس عليهم علماؤهم بتلك التأويلات للآيات فأخذوا بها.

و هم ـ أي المبتدعة ـ ألزموا مخالفيهم سواء من أهل السنة أو الفرق الأخرى المبتدعة بلوازم ظنوا أنها تلزمهم وكفروهم بها سواء بسواء

فمن نفى الصفات يستطيع تكفير من قال بإثباتها ووصفه بالمُجسِّم والمُشبِهِ الله بخلقه، وقوله يلزم تعدد الذات عندهم وهي لوازم إثبات الصفات في نظرهم !!

ومن قال بخلق القرآن يستطيع تكفير من قال بعدم خلق القرآن سواء من أهل السنة أو غيرهم ، بلوازم كلامهم ـ كما كفرهم أهل السنة بلوازم كلامهم ـ فيقولوا إن قولكم القرآن غير مخلوق لله أن هناك خالق آخر خلقه وهذا شرك في الربوبية، فالله خالق كل شيئ.

ولكن كان أهل السنة أبعد عن تكفير المخالف من غيرهم من الفرق الأخرى، ولم يلزموا مخالفهم إلا ما التزموا به، وكفروا من آلت به بدعته إلى كفر دون غيره ممن لم يلتزم بدعته وما يؤول إليه مقاله.

ذكر أهل السنة في كتبهم الكثير من النصوص وأقوال العلماء التي تحث على عدم التسرع في تكفير (المسلم).

(من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما)

(من دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه)

وقالوا: الذي ينبغي الاحتراز عن تكفير (المسلم) ما وجد إليه سبيلاً.

وقالوا: استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة (المصرحين بالتوحيد) خطأ

وقالوا: فإن الرجل يكون (مؤمناً) باطناً وظاهراً لكن تأول تأويلاً أخطأ فيه إما مجتهداً وإما مفرطاً مذنباً فلا يقال إن إيمانه حبط لمجرد ذلك إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي.

وقالوا: فلعن (المسلم) المُعيَّن حرام وأشد منه رميه بالكفر وخروجه من الإسلام.

وقال ابن عبد البر رحمه الله: والمعنى فيه عند أهل الفقه والأثر أهل السنة والجماعة النهي عن أن يكفر المسلم أخاه (المسلم) بذنب أو بتأويل لا يخرجه من الإسلام عند الجميع.

وقالوا: إن نصوص الوعيد التى فى الكتاب والسنة ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها فى حق المعين (المسلم) إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع.

وقالوا: يجب أن يحتاط في عدم تكفير (المسلم)، حتى قالوا إذا كان في المسألة وجوه كثيرة توجب التكفير ووجه واحد يمنعه، على المفتي أن يميل إليه.

وقالوا: وليس لأحد أن يكفر أحدا من (المسلمين) و إن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة

ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

وقالوا: من قذف (مؤمناً) بكفر فهو كقاتله.

وقالوا: لا نكفر أحداً من (أهل القبلة) بذنب.

وقالوا: يروى عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين منهم أبو سعيد الخدري والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وغيرهم النهي عن أن يشهد على معين من (المسلمين) أنه كافر أو أنه من أهل النار بدون العلم بما ختم الله له به.

وقالوا: لا نكفر المبتدع الذي لا تبلغ بدعته إنكار أصل في الدين.

و على العكس من ذلك فإن من صفات أهل البدع التسرع في التكفير، وقد ذم السلف التسرع في التكفير الواقع من أهل البدع.

فقال الغزالي: وقد وقع التكفير لطوائف من (المسلمين) يكفر بعضها بعضا فالأشعري يكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في رؤية الله تعالى

وفي إثبات العلم والقدرة والصفات وفي القول بخلق القران والمعتزلي يكفر الأشعري زاعماً أنه كذب الرسول في التوحيد فإن إثبات الصفات يستلزم تعدد القدماء.

قال: والسبب في هذه الورطة الجهل بموقع التكذيب والتصديق ووجهه أن كل من نزل قولاً من أقوال الشرع على شيء من الدرجات العقلية التي لا تحقق نقصاً فهو من التعبد وإنما الكذب أن ننفي جميع هذه المعاني، ويزعم أن ما قاله لا معنى له وإنما هو كذب محض، وذلك هو الكفر المحض ولهذا لا يكفر المبتدع المتأول ما دام ملازماً لقانون التأويل لقيام البرهان عنده على استحالة الظواهر.

ولكن لنكون من أهل السنة والجماعة ونحذو حذوهم في عدم التسرع في تكفير المسلمين و نحذر بعدها من طريقة أهل البدع في التسرع في التكفير

يجب أولاً معرفة المقصود (بالمسلم) أو(أهل القبلة) أو (المؤمن)، هل هو كما حدده الشرع بأنه الذي كفر بالطاغوت بكل صوره، أم هو ما يصطلح عليه أدعياء العلم اليوم الغارق في أوحال الشرك.

ثم لمّا نتفق على تعريف أو مفهوم (المسلم) أو من هو (المسلم) كما حدده الشرع ، نتكلم بعد ذلك في موانع تكفيره ونقول بعدم تكفير (المسلم) ما وجد لذلك سبيلاً ونأخذ بجميع وصايا أهل السنة في ذلك.

أما قبل الإتفاق على تعريف (المسلم) فالكلام عن موانع التكفير وشروطه سابق لأوانه، و أما أن يكون المرء واقعاً أصلاً في الشرك فأي لوازم نلزمه إياها وهو ملتزم أصلاً الشرك.

ومن المسائل التي فتحت للمناظرات ، النقاش في مُسمَّى الإيمان.

ولكن.. لم تكن مسألتهم في كون الكفر بالطاغوت من معنى الإيمان ، أو أنه لا إيمان لمن لم يكفر بالطاغوت، لم تكن هذه مسألة للنقاش.

لم يُقل في زمانهم كما قيل في زماننا من أن معتقد الكفر والعامل به يُعتبر مسلماً ويكفيه التلفظ فقط !!!

بل خاض الأوائل في هل كون الإيمان يزيد وينقص أم هو ثابت لا يتغير.

فعند القراءة لبعض كتب أهل السنة في هذه المسألة ككتاب الإيمان لابن أبي شيبة رحمه الله نجد أنه يبرهن فيه أن الأعمال تدخل في مُسمّى الإيمان وأن درجات الإيمان متفاوتة وأنه يزيد وينقض فلا نجد من أول الكتاب لآخره مسألة الكفر بالطاغوت هل هي واجبة أم لا ؟!!

فلا يظفر من يريد تحرير مذهب أهل السنة في أن الكفر بالطاغوت من معنى لا إله إلا الله بما يشفي الغليل من كتب المتقدمين.

لأن المسألة مفروغ منها.. لا يقال لمن يعبد الطاغوت بأنه مسلم.. لا خلاف في هذا بينهم وفي الخوض والنقاش الذي جرى بينهم في مُسمَّى الإيمان، قيل عن قول الجهمية في مسمى الإيمان أنه أفسد قول قيل في الإيمان

وحاصله بأنهم جعلوا الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، ويتساوى فيه العباد، وأنه إما أن يعدم وإما أن يوجد، ولا يتبعض و إيمان أفسق الأمة كإيمان النبيين.

فأخرجوا العمل من مُسمّى الإيمان والإيمان عندهم لا يزيد بطاعة ولا ينقص بمعصية ومع حكم الجهمية بخروج الأعمال من مسمى الإيمان إلا أنهم يُكفّرون من أتى بأعمال كفرية ظاهرة، فمن لازم معتقدهم ألا يُكفّروا هؤلاء إلا أنهم فروا من هذا اللازم

وقالوا : إن هذه الأعمال أمارة على الكفر، ودليل على انتفاء التصديق والعلم من القلب

ومع فساد قول الجهمية إلا أنهم يُكفّرون فاعل الكفر، فهم يُكفرون من أشرك بالله في عبادته.

وعند مقارنة قولهم بقول مرجئة اليوم (التلفية) يتبين مدى قبح وفساد قول الآخرين

فمرجئة اليوم (التلفية) لا يُكفرون من أتى بعقيدة كفرية وبأعمال كفرية !!

فهم يقولون أنهم موافقون لعقيدة أهل السنة والجماعة في أن الإيمان قول واعتقاد وعمل ومعنى ذلك أن الإيمان هو قول لا إله إلا الله.

واعتقاد أن لا إله إلا الله

وعمل بلا إله إلا الله

هذا اعتراف نظري منهم

بينما في الواقع العملي هم يُخرجون الإعتقاد والعمل من مُسمى الإيمان، فمن قال لا إله إلا الله، ولم يأت باعتقاد أن لا إله إلا الله من نفي وإثبات (كفر بالطاغوت وإيمان بالله)، بأن عبد الطاغوت واعتقد جواز عبادته من دون الله، بل وعمل بهذا الإعتقاد.

فهذا عند التلفية مسلم مؤمن !! فأين نسبة قولهم لقول الجهمية المارقة الذين يكفرون من أتى باعتقاد كفري وبأعمال كفرية !!

هذا التناقض البيّن الواضح والإنتساب لعقيدة أهل السنة والجماعة في مُسمَّى الإيمان من قِبل هؤلاء التلفيين، لا يقره أي عاقل منصف، لو كان منهم رجل رشيد !!؟

سبحانك اللّهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.